حوار مع الدكتورة
آمال قرامي[1]

مركز دعم :هذا العدد من المجلة عن التعددية الثقافية، فما هو تعريفكم لهذا المصطلح؟

د. آمال قرامي: ليست التعددية الثقافية شعارًا يوشّي به بعض السياسيين الخطاب من أجل كسب الأصوات والأتباع في المسار الإنتخابي كما أنّها ليست مصطلحا يردّده البعض زمن الأزمات لإقناع المحتجين بأنّ سياسة الدولة إدماجية وتشاركية ومنفتحة على الجميع. إنّ التعددية الثقافية في تقديري، مرئية تتغلغل في الواقع المعيش إذ لا يخلو

1آمال قرامي هي أستاذة جامعية تونسية متخصصة في الجنسيات في الإسلام، وتدرس في كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة بجامعة منوبة.

مجتمع من وجود مجموعات تحتفظ بثقافتها الخاصة وتدافع عن حقوقها في التعبير عن هويتها وممارساتها وطقوسها وغيرها. من هذا المنطلق تحيل التعددية الثقافية على مشهد فسيفسائي سمته الجوهرية التنوع والإختلاف، وتشير في ذات الوقت، إلى كيفية النظر إلى 'الأقليات» والتفاعل معهم، وإلى طبيعة العلاقة بين الأفراد ومختلف الثقافات، من جهة، وشكل التواصل بين الثقافة السائدة وسائر الثقافات الأخرى، من جهة أخرى.

ولا يمكن للتعددية الثقافية أن تتحوّل إلى قوة فاعلة ونموذج فكري وإطار مؤسسي إلاّ في ظل مجتمع متوازن ومساواتي سمته الأساسية الإحترام: إحترام حق الجماعات المختلفة في الإحتفاظ برأسمالها الثقافي والمشاركة في الحياة العامة من موقع يثري العمران ويحقق الإندماج الإيجابي. ويمكن القول إنّ التعددية الثقافية هي نقيض سياسة الهيمنة الثقافية السائدة في بعض البلدان التي تريد فرض ثقافة موحدة على مختلف الجماعات مطالبة إياها بالذوبان والإنصهار والإندماج القسري.

مركز دعم :كيف يمكن لكم وصف المجتمع التونسي من منظور التنوع الثقافي؟

د. آمال قرامي: لأقتضت سياسات بناء دولة الإستقلال الحد من مظاهر التنوع الثقافي وكتم الأصوات التي تدافع عن كيانات مختلفة في مقابل العمل على تكريس ثقافة مهيمنة تعكس توجهات «الزعيم بورقيبة» وتصوراته لمستقبل تونس. وكان المبرر آنذاك الحفاظ على لحمة الشعب والوحدة الوطنية وإستبدال بنية ذهنية قبلية ببنية ذهنية تؤسس لبناء الفرد المنصهر في قيم حداثية ومنظومة ثقافية تضمن طاعة الجميع وخضوعهم لإرادة الزعيم/الأب. ولذلك ما كان للأمازيغ أن يجاهروا بتمسكهم بخصوصياتهم الثقافية وما كان بالإمكان للإعلام ولا للمؤسسة التعليمية والمؤسسة الثقافية أن تتحدث عن الأقليات كالسود والأمازيغ واليهود والمسيحيين والبهائيين ... وتعرّف بخصوصياتها الثقافية وما كان بإمكان مختلف الفاعلين أن يشيروا إلى ضرورة ضمان تكافؤ الفرص للجميع على قاعدة المواطنة. وبناء على ذلك البعد التاريخي السياسي أعتبر أننا اليوم نعيش واقعًا يسمح بتغيير السياسات ويتطلب الإصغاء إلى مختلف الأصوات التي حرمت من حق التعبير عن الذات وفتح أفضية ومساحات لهذه العناصر حتى تعرّف بنفسها وهذا السياق التاريخي المفصلي يفرض في ذات الوقت، مناقشة هذه القضايا المتصلة بالتعددية الثقافية. ونعتبر أنه ما عاد بالإمكان فرض سياسات الحجب فالمواطنة تقتضي

الإقـرار بحـق الجميـع فـي الإحتفـاظ بخصوصياتهـم والإلتـزام بمبـدأ العيـش معًـا.

مركـز دعـم : هـل تعتبـرون التنـوع الثقافـي عنصـر إثـراء أو عنصـر أزمـة فـي تونـس؟

د. آمـال قرامـي: لا التنـوع الثقافـي هـو فـي تقديـري، محصلـة الروافـد الحضاريـة ونتـاج الشعوب التـي رسـمت تاريـخ تونـس ونحتـت معالمـه وهـو بالتأكيـد عنصـر ثـراء: لغـوي ،وعرقـي وفنـي وفكـري وديني ...وهـو خيـر وسـيلة داحضـة لمـن يرومـون فـرض التنميـط علـى المجتمـع التونسـي. ولكـن لا يمكـن للتعدديـة الثقافيـة أن تتجسـد إلا متـى وضعـت لهـا سياسـات ناجحـة وأُديـرت بحكمـة وإسـتقلالية. فإختبـار التونسـيين لمـدى قبولهـم للتنـوع فـي جميـع تجلياتـه هو شـأن محلـي ولا يمكـن أن تتدخـل فيـه جهـات أجنبيـة وأن تمـلي قراراتهـا علـى التونسـيين أو أن تتلاعـب بعقـول البعـض. وأرى أنّ هـذا الملـف لـم يفتـح بعـد للنقـاش الجـدي فـي تونـس بـل بقـي مـن المواضيـع التـي تـدرّس فـي البرامـج التعليميـة بإسـتخفاف وسـطحية، وتُتنـاول فـي وسـائل الإعـلام بشـكلية مفرطـة ويطـرح فـي الخطـاب السياسـي بتبسـيط مخـلّ ينحـو منحـى الإختـزال بـل أن التنـوع الثقافـي يتماهـى فـي نظـر عـدد مـن التونسـيين، مـع «الفلكلـور» ولا يتنـزل فـي إطـار حقوقـي ونعنـي بذلـك حقـوق الإنسـان.

مركـز دعـم: متـى يكـون التنـوع الثقافـي مشـكلة تعـوق بنـاء الديمقراطيـة، وكيـف يمكـن أن يكـون طريقًـا لبنائهـا؟

د. آمـال قرامـي: لعندمـا تحـرك أطـراف خارجيـة بعـض الجماعـات الثقافيـة وتدعوهـا إلـى الإنفصـال والخـروج علـى مـا يشـكل قـوام اللحمـة بيـن التونسـيين يصبـح التنـوع الثقافـي مثيـرًا لمشـاكل قـد تعـوق مسـار بنـاء التحـول الديمقراطـي، وعندمـا يعكـس الحـوار حـول التنوع الثقافـي تشويشًـا إصطلاحيـا وسـوء فهـم يغـدو عامـلاً معرقـلاً لبنـاء الديمقراطيـة محفـزًا علـى التباغـض والعنـف، وعندمـا يسـيء البعـض فهـم حريـة التعبيـر ويكـون وعيهـم مزيفًـا يتحـول التنـوع إلـى فوضـى، وعندمـا يسـعى البعـض إلـى فـرض خياراتـه علـى الآخريـن بالقـوة فإنـه لا مجـال للحديـث عـن التنـوع الثقافـي ولا عـن التعدديـة الثقافيـة، وعندمـا يتطـرق الإعـلام إلـى التنـوع الثقافـي علـى أنـه موضـوع للسـخرية مـن الآخـر وسـبب للإسـتنقاص منـه وإقصائـه أو موضوعًـا للإثـارة "**البـوز الإعلامـي**" فـإن ردود فعـل الجماعـات تتحـول إلـى دفـاع شـرس عـن التنـوع بإعتبـاره علامـة هوويـة وشـكلاً مـن أشـكال الحضـور والوجـود. إنّ التنـوع الثقافـي متـى فهـم علـى أسـاس أنـه قيمـة بنـاءة وإختبـار للوجـود مـع الآخـر المختلـف، وإنعـكاس لمقتضيـات

الغيريـة، فإنـه يصبـح علامـة علـى الحيـاة الديناميكيـة والتجـدد التـي تفسـح للجميـع مجـالًا للمشـاركة فـي الشـأن العـام علـى قـدم المسـاواة دون تمييـز علـى أسـاس جهـوي أو ثقافـي أو طبقـي أو عنصـري... وعمومـًا يمكـن القـول إنّ تونـس تعيـش مرحلـة 'التحـوُّل إلـى التعدديـة الثقافيـة' الفعليـة وأمامهـا الكثيـر مـن الوقـت والجهـد حتـى تصـل إلـى مرحلـة الإحتفـاء بالتعدديـة الثقافيـة والتنـوع. أمـام المؤسسـات التربويـة والتعليميـة والثقافيـة والإعلاميـة الكثيـر مـن العمـل مـن أجـل تغييـر العقليـات والممارسـات ومقاومـة "**الجوهرانيـة الثقافيـة**" التـي تزعـم أنّهـا خيـر مدافعـة عـن «الأصـل».

مركـز دعـم: فـي ظـل الصراعـات التـي تشـهدها المنطقـة، إلـى أي مـدى يمكـن السـيطرة علـى صراعـات الهويـة فـي منطقـة مثقلـة بالهويـات المكبوتـة؟

د. آمـال قرامـي: الأزمـات الهوويـة والصراعـات مـن أجـل الدفـاع عـن الهويـات تمثـل سـمة العصـر وهـي براديغـم جديـد لا بـد أن يؤخـذ فـي الحسـبان عنـد تحليـل التحـولات الأخيـرة التـي مـرت بهـا المنطقـة بصفـة خاصـة، والعالـم بصفـة عامـة. ولا أعتقـد أن الشـخصيات المعطوبـة والأنـوات التـي تبحـث عـن الإعتـراف والـذوات الخائفـة تسـتطيع أن تتجـاوز هـذه الأزمـات بيسـر. أمامنـا الكثيـر حتـى نصـل إلـى تطبيـق «**سياسـات الإعتـراف**".

مركـز دعـم :مـا هـو برأيكـم مسـتقبل الإسـلام السياسـي، وهـل التجربـة التونسـية تجعـل مـن الإسـلام السياسـي أكثـر إنفتاحـًا علـى التعدديـة الثقافيـة؟

د. آمـال قرامـي: بـات الحديـث اليـوم عـن '**البعديـات**'': مـا بعـد الحداثـة، مـا بعـد العلمنـة، مـا بعـد النسـوية، ...وهـذا يعنـي أننـا إزاء مرحلـة «**مـا بعـد الإسـلام السياسـي**» التـي تتطلـب أدوات تحليـل مختلفـة وفهمـا مغايـرًا للأحـداث والدوافـع و... أمـا فـي مـا يتعلّـق بالتجربـة التونسـية لحـزب النهضـة فإنهـا تمـر بإختبـار صعـب ولعـل أهـمّ محطاتـه هـي قضيـة الحريـات الفرديـة وخصوصـًا القضـاء علـى كل أشـكال التمييـز فإلـى أي مـدى سـتكون «النهضـة» قـادرة علـى تغييـر مواقفهـا وترتيـب أولوياتهـا وتغييـر نظرتهـا إلـى الحيـاة وهـي التـي طالمـا اعتبـرت أن العقيـدة مدخـل لفهـم الحيـاة السياسـية، وهـي التـي طالمـا رفعـت شـعار الدفـاع عـن المقدسـات والهويـة العربيـة الإسـلامية؟ وشـتان بيـن إعتمـاد البراغماتيـة وسـيلة للوصـول إلـى السـلطة والإسـتعداد للتفـاوض للوصـول إلـى حـل والتأكيـد الدسـتوري أو التشـريعي أو البرلمانـي علـى التعدديـة الثقافيـة وبيـن الإقتنـاع الفعلـي بمدنيـة الدولـة وحـق المواطنيـن فـي ممارسـة حياتهـم علـى قاعـدة المواطنـة لا الديـن. إن التحـدي الحقيقـي هـو فـي الممارسـات

وتغييـر الذهنيـات لا علـى مسـتوى النخـب أي قيـادات النهضـة التـي يحـق لهـا وحدهـا الظهـور فـي الإعـلام بـل علـى مسـتوى القاعـدة. الإشـكال الحقيقـي فـي تقديـري، هـو فـي توصـل النهضـة إلـى إنتـزاع الإعتـراف، وإكتسـاب ثقـة التونسـيين لا مـن خـلال العمـل السياسـي فقـط بـل مـن خـلال المراجعـات التـي تتطلـب شـجاعة ومسـؤولية وقـدرة علـى قبـول تطبيـق المسـاءلة والمحاسـبة علـى قياداتهـا وأتباعهـا الذيـن قامـوا بتجـاوزات زمـن تولـي «النهضـة» الحكـم. إنّهـا مسـألة مرتبطـة بذاكـرة مشـحونة بالأحـداث والصـور والكلمات...إنّـه وجـع لا يمكـن التغاضـي عـن أثـره فـي حيـاة التونسـيين.